فقه الدعوة
من
قصة مؤمن آل فرعون

إعداد
الدكتور/ محمد سيد أحمد سليم
مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بأسيوط



بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.. وبعد

حفل القرآن الكريم بنماذج متعددة للصراع بين الخير والشر، ومن هذه النماذج قصة سيدنا موسىٰ - عليه السلام - مع فرعون، والتي برز من خلالها نموذج لرجل يقف في مواجهة الشر متسلحـًا بالإيمان، وكانت دعوته حافلة بالفقه الدعوي، وقد وردت قصته في سورة غافر، وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون فكان هذا البحث بعنوان: (فقه الدعوة من قصة مؤمن آل فرعون).

وقد عرفت بالمصطلحات الواردة في العنوان، وعرفت بالسورة الكريمة، وذكرت القصة كما وردت فيها وأقوال المفسرين والعلماء، كما عرفت بالرجل المؤمن وذكرت المؤهلات التي أهلته للقيام بالدعوة والتي برزت من خلال حديثه في القصة كالعلم والذكاء والحكمة وغير ذلك، ثم بينت صفات المدعوين والتي منعتهم من الاستجابة لدعوة الرجل المؤمن كإثارة الشبهات والكبر والإرهاب وغير ذلك، ثم ذكرت الموضوع الذي تناوله الرجل المؤمن في دعوته كالدعوة إلىٰ التوحيد والإيمان بموسىٰ - عليه السلام - والتحذير من الدنيا والتذكير باليوم الآخر، ثم بينت الأساليب والوسائل الدعوية التي استخدمها الرجل المؤمن في دعوته كالترغيب والترهيب والتلطف في القول والاستدراج، ثم ذكرت بعض العبر والعظات المستفادة من القصة ومنها أن الخير لابد أن ينتصر علىٰ الشر في النهاية والعبرة بما حل بفرعون وبذل الوسع في الدعوة، وأخيراً سجلت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل -

In the name of Allah the Merciful

Research Summary

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and peace be upon to whom the messenger and. Mercy to the worlds, our Master Muhammad, his family and companions

The Qur'an is full of multiple examples of the conflict between good and evil. Among these is the story of Moses, peace being upon him, with Pharaoh, in which a model emerged of a man standing in the face of evil armed with faith. His call was filled with religious jurisprudence. His story was recited in Surat Ghafer. This research entitled: (Jurisprudence of the call of the Pharaoh's believer story)

It mentioned the words in the title and was known as the Holy Qur'an and mentioned the story as it appeared in it and the sayings of the commentators and the scholars as known to the believer and mentioned the qualifications that enabled him to carry out the call which emerged through his talk in the story such as science, intelligence, wisdom, etc.

Then, the qualities of the invitees that prevented them from responding to the invitation of the believer Such as raising suspicions and magnanimity, terrorism and so on. Then I mentioned the subject that the believer addressed in his call, such as the call to monotheism,

faith in Moses, peace be upon him, warning from the world, reminding of the other day, intimidation and Politeness to say then mentioned some lessons and homilies learned from the story and the ones that good must triumph over evil in the end and the lesson as a solution to Pharaoh and do what you can call and finally recorded the most important findings through research.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي يسر لهذا الدين من يرد عنه كيد الكائدين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي الأمين خير من ذب عن هذا الدين وعلىٰ آله وصحبه أجمعين . وبعد،،،

اقضت حكمة الله (ﷻ) أن تكون الحياة معتركـًا بين الحق والباطل، وصراعا بين الخير والشر، وغالبـًا ما يكون جند الباطل كثيفـًا، وأسلحة الشر فتاكة، وأنصار الحق قليلين، وإذا تم للباطل انتصار فإنه غالبـًا ما يكون في الجولة الأولىٰ، وتكون النهاية أن ينتصر الحق ويعلو الخير، وقد حفل القرآن الكريم بنماذج متعددة لهذا الصراع ومن هذه النماذج قصة سيدنا موسىٰ (ﷺ) مع فرعون، والتي أفاض القرآن الكريم في الحديث عنها تسلية للنبي (ﷺ) وتحذيراً لمشركي قريش من عاقبة تكذيبهم وضلالهم، ويبرز من خلال هذه السيرة نموذج لرجل يقف في مواجهة الباطل متسلحـًا بالإيمان داعيـًا إلىٰ الله (ﷻ) بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلاً لفرعون وحاشيته وقومه بالتي هي أحسن، راجيـًا لقومه الهداية، مشفقـًا عليهم من سوء العاقبة، وكانت دعوته حافلة بالفقه الدعوي، مع أن قصته لم ترد إلا مرة واحدة في الكتاب العزيز، لذا أردت أن أميط اللثام عن بعض هذه الجوانب، فكان هذا البحث الذي وسمته بـ" فقه الدعوة من قصة مؤمن آل فرعون " .

وكان الباعث علىٰ الكتابة في هذا الموضوع - بعد توفيق الله (ﷻ) واستخارته - عدة أسباب من أهمها ما يلي:

أولاً: الصراع بين الحق والباطل في العصر الحاضر، والذي يشمل أنحاء المعمورة، ويوهم أن الباطل منصور، ولكن هذا إلىٰ حين، والنصر في النهاية حليف المؤمنين .

ثانيـًا: الانهزام النفسي عند بعض المنتسبين للحق بحجة أنهم لا يجدون أعوانـًا علىٰ الخير، فأردت أن أسوق هذا المثال لرجل وقف يجابه الباطل وحيداً فكان الله معه بعنايته وحفظه .

ثالثًا: أردت أن أبرز بعض الجوانب من فقه الدعوة في قصة هذا الرجل، وذلك فيما يتعلق بالداعية، والمدعو، وموضوع الدعوة والأساليب والوسائل الدعوية .

لذا اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد وست مباحث، وخاتمة ثم ثبت بالمصادر والمراجع .

أما المقدمة: فقد تضمنت بعد حمد الله (ﷻ) والصلاة والسلام علىٰ رسوله (ﷺ) أهمية الموضوع والباعث علىٰ الكتابة فيه .

وأما **التمهيد**: فيشتمل علىٰ التعريف بالفقه وبالدعوة وبفقه الدعوة .

وأما **المبحث الأول** فعنوانه: قصة مؤمن آل فرعون والتعريف به .

وأما **المبحث الثاني** فعنوانه: سمات الداعية من خلال القصة .

وأما **المبحث الثالث** فعنوانه: سمات المدعو .

وأما **المبحث الرابع** فعنوانه: موضوع الدعوة .

وأما **المبحث الخامس** فعنوانه: أساليب ووسائل الدعوة .

وأما **المبحث السادس** فبعنوان: العبرة من القصة .

وأما **الخاتمة** فقد اشتملت علىٰ أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال البحث .

والله من وراء القصد وهو يهدي إلىٰ سواء السبيل

التمهيد

بادئ ذي بدء يجدر بنا أن نتعرف علىٰ المعنىٰ المراد من كلمة فقه وكلمة دعوة في اللغة والاصطلاح، ثم نعرج علىٰ المعنىٰ المراد من فقه الدعوة حتىٰ يتبين المراد من البحث .

أولاً: تعريف الفقه لغة:

للفقه في اللغة معان عدة: فهو يعني إدراك الشيء والعلم به، فقد ورد في لسان العرب: " الفقه العلم بالشيء والفهم له " (١) .

ومن معاني الفقه الفهم والفطنة (٢) .

والفقه يعني: " التوصل إلىٰ علم غائب بعلم شاهد " (٣) .

ثم إن هذا اللفظ غلب استعماله " علىٰ علم الدين لسيادته وشرفه وفضله علىٰ سائر أنواع العلم ... قال الله (ﷻ): {لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ} (٤) أي ليكونوا علماء به، وفقه فقهاً بمعنىٰ علم علما... ورجل فقيه: عالم، وكل عالم بشيء فهو فقيه، وفقيه العرب عالم العرب، وتفقه تعاطىٰ الفقه "(٥).

وبهذا يكون هناك فرق بين العلم والفقه، فيصير الفقه أخص من العلم (٦) .

ويفهم من هذا أن كلمة فقيه لا تطلق إلا علىٰ من يشتغل بعلوم الدين، كما يطلق عليه عالم، أما من يشتغل بالعلوم الأخرىٰ فلا يطلق عليه فقيه، وإنما يطلق عليه لفظ

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ١٣/ ٥٢٢، ط: دار صادر – بيروت، ط: الثالثة ١٤١٤هـ، وينظر: مختار الصحاح للرازي صـ٢٧٧، ط: دار الحديث ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .

(٢)ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: ٦/ ٢٢٤٣، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين –بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ٣٨٥، مراجعة: محمد خليل عيتاني، ط: دار المعرفة–بيروت، ط: السادسة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م .

(٤) سورة التوبة، من الآية [١٢٢] .

(٥) لسان العرب: ١٣/ ٥٢٣ باختصار، وينظر: تاج العروس للزبيدي صـ٣٦٨، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية .

(٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن صـ٣٨٥ .

عالم .

ثانيًا: تعريف الفقه اصطلاحًا:

إن تعريف الفقه في اصطلاح العلماء لا يبعد كثيراً عن المعاني التي وضعت له في اللغة خاصة بعد تحديده وتمييزه، فيعرف بأنه: " العلم بأحكام الشريعة تفصيلاً من خلال النظر في الأدلة والأصول الشرعية من كتاب وسنة وإجماع وقياس وجلب مصلحة ودرء مفسدة "(١) .

وهو بهذا يشمل أبواب العبادات والمعاملات الإسلامية .

ثالثًا: تعريف الدعوة لغة:

للدعوة في اللغة عدة معان منها: الدعاء، والنداء والسوق والدعاية جاء في لسان العرب: " والدعوة المرة الواحدة من الدعاء، والدعاء واحد الأدعية، وأصله دعاو؛ لأنه من دعوت إلا إن الواو لما جاءت بعد الألف همزت، وفي كتابه(ﷺ) إلىٰ هرقل (ملك الروم): "أدعوك بدعاية الإسلام"(٢) أي بدعوته، وهي كلمة الشهادة، ودعا الرجل دعوا ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلانا: أي صحت به واستدعيته، وتداعىٰ القوم: دعا بعضهم بعضا حتىٰ يجتمعوا، ودعاه إلىٰ الأمير: ساقه "(٣) .

وهناك من فرق بين الدعاء والنداء كالراغب الأصفهاني(٤) فقال: "الدعاء كالنداء إلا

---

(١) فقه الدعوة إلىٰ الله: د/ علي عبد الحليم محمود صـ ١٥، ط: دار الوفاء، ط: الرابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، وينظر: دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ/ محمد فريد وجدي: ٧/ ٣٥٦، ط: دار الفكر – بيروت، ومحاضرات في فقه الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ: د/ أحمد محمد زايد صـ٩، ط: مكتبة الإيمان، ط الأولىٰ ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م .

(٢) صحيح البخارىٰ = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله = = (ﷺ) وسننه وأيامه لمحمد ابن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، كتاب: بدء الوحىٰ، باب: كيف بدء الوحىٰ إلىٰ رسول الله (ﷺ): ١/ ٨، حديث رقم ٧، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط: الأولىٰ ١٤٢٢هـ .

(٣) لسان العرب لابن منظور: ١٤/ ٢٥٩ .

(٤) الراغب الأصفهانىٰ: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، وتوفىٰ سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م. [ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي: ٢/ ٢٥٥، ط: دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر ٢٠٠٢م].

إن النداء قد يقال بـ يا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو: يا فلان " (١) .

كما أن من معانيها في اللغة الإمالة وهي: " أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك " (٢) .

وهي تعني أيضًا: " الرغبة إلىٰ الله - تعالىٰ - ... وتداعوا عليه تجمعوا، ودعاه: ساقه، وادعىٰ كذا: زعم أن له حقًا أو باطلاً " (٣) .

كما تعني الدعوة في اللغة " الحِلف يقال: دعوة فلان في بني فلان " (٤) .

وتستعمل الدعوة استعمال التسمية تقول: دعوت ابني زيداً أي: سميته، ودعوته إذا سألته وإذا استغثته، والدعاء إلىٰ الشيء الحث علىٰ قصده (٥) .

أما الدعاة فهم قوم " يدعون إلىٰ بيعة هدىً أو ضلالة واحدهم داع، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلىٰ بدعة أو دين، وأدخلت الهاء فيه للمبالغة، والنبي (ﷺ) داعي الله – تعالىٰ – وكذلك المؤذن ... والداعية: صريخ الخيل في الحروب " (٦) .

أما الدِّعوة بالكسر فهي تختلف عن الدَّعوة بالفتح، فبالكسر تعني: ادعاء الولد الدعي غير أبيه (٧) .

وبهذا يتبين أن كلمة دعوة في اللغة تعني: الطلب والنداء والسؤال والحث علىٰ الشيء والرغبة إلىٰ الله – تعالىٰ – والتجمع وغير ذلك من المعاني .

---

(١) المفردات في غريب للراغب الأصفهاني صـ١٧٦ .

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ٢٧٩، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي صـ١٢٨٢، ١٢٨٣، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(٤) تاج العروس: ٣٨/ ٤٩ .

(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن صـ١٧٦، ١٧٧ .

(٦) لسان العرب: ١٤/ ٢٦٠، ٢٦١ .

(٧) ينظر: المرجع السابق: ١٤/ ٢٦٢ .

رابعـًا: تعريف الدعوة اصطلاحـًا:

كلمة الدعوة من الكلمات التي تطلق ويراد بها معنيان، فقد يراد بها الدين الإسلامي أو الرسالة الإسلامية، وقد يراد بها نشر الإسلام وتبليغه وبيانه للناس، وسياق إيرادها هو الذي يحدد المراد منها [1] .

لهذا سنورد بعض التعريفات لكل معنىٰ من هذين المعنيين علىٰ حدة:

أ- تعريف الدعوة بمعنىٰ الدين:

إن كلمة الدعوة إذا أطلقت ينصرف الذهن إلىٰ أن المراد بها دين الإسلام، ولقد ساق أستاذنا الدكتور/ أحمد غلوش عدة تعريفات للدعوة بمعنىٰ الدين نذكر منها ما يلي: "

١- الدعوة الإسلامية: هي الخضوع لله والانقياد لتعاليمه بلا قيد ولا شرط .

ومن المعلوم أن الانقياد لله دليل الخضوع له، ولذا اشترط الاختيار الحر في هذا الانقياد ليتحقق الخضوع التام .

٢- الدعوة الإسلامية: هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين، وأنزل تعاليمه وحيًا علىٰ رسول الله (ﷺ) وحفظها في القرآن الكريم، وبينها في السنة النبوية.

٣- الدعوة الإسلامية: هي النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها محمد (ﷺ) من ربه، وأمره بتبليغها إلىٰ الناس وما يترتب علىٰ ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة " [2] .

كما أن تعريف الشيخ محمد الغزالي للدعوة يندرج تحت هذا المعنىٰ فقد عرفها بأنها: " برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين " [3] .

---

(١) منهج الدعوة في القصة القرآنية لأبي عبادة محمد صالح البطايحة صـ٣٢ بتصرف يسير، ط: دار الكتاب الثقافي الأردني.

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها: أستاذنا الدكتور/ أحمد أحمد غلوش صـ١٢، ١٣، ط: دار الكتب الإسلامية، ودار الكتاب المصري – القاهرة، ودار الكتاب اللبناني – بيروت .

(٣) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالي صـ١٢، ط: دار التوفيق النموذجية، ط: السادسة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

ويمكننا أن نقول إن الإسلام يشمل كل هذه التعريفات فلا مانع من الجمع بينها أو الأخذ بواحد منها، فدين الإسلام دين جمع الله (ﷻ) فيه تجارب الأمم السابقة وأخبر عن أمور لاحقة والإسلام يعني الشهادة لله (ﷻ) بالوحدانية ولرسوله (ﷺ) بالرسالة، والإتيان بالمأمورات واجتناب المنهيات علىٰ قدر الوسع والطاقة لتحقيق خلافة الله في الأرض، والتمكين لدينه، والفوز برضاه (ﷻ) .

ب- تعريف الدعوة بمعنىٰ البلاغ والنشر:

إن مفهوم الدعوة بمعنىٰ نشر الإسلام وتبليغه للناس أصبح " علماً مستقلاً له موضوعه وخصائصه وأهدافه، وهو بذلك يواكب سائر العلوم الإسلامية يفيدها ويستفيد منها، ويشاركها في إفادة الإسلام برسم طريق منهجي يكفل له الانتشار والذيوع " [1] .

وهناك تعريفات عدة يمكن أن ندرجها تحت هذا المعنىٰ منها تعريف صاحب كتاب هداية المرشدين بأنها: " حث الناس علىٰ الخير والهدىٰ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل " [2] .

ومن هذه التعريفات " تبليغ الإسلام للناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة"[3] .

ومنها – أيضاً – تعريف الدعوة بأنها: " العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلىٰ تبليغ الناس الإسلام بما حوىٰ من عقيدة وشريعة وأخلاق " [4] .

وبهذا يتبين أن الدعوة صارت علماً كسائر العلوم له قواعده وأصوله التي لابد أن يتعرف عليها من يحاول التصدي لتعريف الناس بدين الإسلام وتحبيبه إليهم، أو

---

(1) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها: أد/ أحمد غلوش صـ10 .

(2) هداية المرشدين إلىٰ طرق الوعظ والخطابة للشيخ علي محفوظ، صـ16، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ط: المكتبة التوفيقية .

(3) المدخل إلىٰ علم الدعوة دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة وأصولها ومناهجها وأساليبها ووسائلها ومشكلاتها في ضوء النقل والعقل: أد/ محمد أبو الفتح البيانوني صـ13، ط: مؤسسة الرسالة.

(4) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها صـ10 .

محاولة حث المسلمين علىٰ التمسك بمبادئه وشرائعه ودعوتهم للتمسك به والعمل بما فيه .

خامسًا: تعريف فقه الدعوة:

المقصود من فقه الدعوة " التعمق والتفقه في فهم تاريخ الدعوة وأسبابها وأركانها وأهدافها وأساليبها ووسائلها ونتائجها، تعمقًا وتفقهًا يمكن الدعاة إلىٰ الله (ﷻ) من عرضها أحسن عرض، وأكثر ملاءمة لمن توجه إليهم في مختلف بيئاتهم ومتعدد أجناسهم ومتباين ألسنتهم ولغاتهم " (١) .

وقد أوجب بعض العلماء هذا الأمر علىٰ كل المسلمين، يقول الدكتور/ علي عبد الحليم محمود بعد إيراده التعريف السابق: " وذاك واجب علىٰ كل من كان من أتباع محمد (ﷺ) واجب لا ينفك عنه ما دام مسلمًا يقوم به حسب قدرته وإمكاناته " (٢) .

وأرىٰ أن هذا أمر يشتغل به المختصون بعلوم الدين، ولا يتأتىٰ لكل واحد من المسلمين .

وعلىٰ هذا فإنني أحاول في هذا البحث دراسة الموضوع دراسة وافية متعرفًا علىٰ الجوانب الظاهرة والبارزة فيه، ومنقبًا عن الخفي منها كي أبرزه ليحيط به الدعاة ويتعرفوا علىٰ سمات الداعية والمدعوين وأساليب الداعية ووسائله والموضوع الذي تناوله في دعوته كل ذلك من خلال القصة القرآنية ثم الإحاطة بموضوع العبرة منها .

---

(١) فقه الدعوة إلىٰ الله: د/ علي عبد الحليم محمود: ١/ ١٨ .

(٢) المرجع السابق: نفس الجزء والصفحة .

المبحث الأول
قصة مؤمن آل فرعون والتعريف به

وردت قصة مؤمن آل فرعون مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في سورة غافر شأنها كشأن غيرها من دعوات المؤمنين من أتباع الرسل (عليهم الصلاة والسلام)، ويحسن بنا قبل التعرض لتفاصيل القصة أن نتعرف علىٰ السورة الكريمة .

التعريف بسورة غافر:

لهذه السورة الكريمة عدة أسماء منها: " سورة غافر؛ لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله غافر الذنب وقابل التوب، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنىٰ "[1].

كما تسمىٰ بـ" سورة المؤمن لاشتمالها علىٰ حديث مؤمن آل فرعون "[2].

وتسمىٰ – أيضـًا – " سورة الطّول لقوله تعالىٰ في أولها: { ذِي الطَّوْلِ } وقد تُنوسِيَ هذا الاسم "[3] كما تسمىٰ السورة الكريمة " حم الأولىٰ؛ لأنها أولىٰ ذات حم "[4].

والسور المفتتحة " بكلمة "حم" سبع سور مرتبة في المصحف علىٰ ترتيبها في النزول، ويدعىٰ مجموعها "آل حم" جعلوا لها اسم (آل) لتآخيها في فواتحها فكأنها أسرة واحدة وكلمة (آل) تضاف إلىٰ ذي شرف "[5].

وهذه السورة " جعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت "[6].

وهي " مكية بالاتفاق "[7].

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: أد/ وهبة الزحيلي: ٢٤/ ٦٨، ط: دار الفكر المعاصر – بيروت، دار الفكر المعاصر – دمشق، ط: الثانية ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

(٢) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٤٠٩، تحقيق: محمد علي النجار، ط: المكتبة العلمية – بيروت .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي: ٢٤/ ٧٥٠، تحقيق: الرحالة الفاروق، وآخرون، ط: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، ط: الثانية ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .

(٤) بصائر ذوي التمييز: ١/ ٤٠٩ .

(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٤/ ٧٦، ط: دار سحنون – تونس.

(٦) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٧) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٤/ ٧٥ .

أما عن القضايا التي عالجتها السورة الكريمة فشأنها شأن مثيلاتها من السور المكية التي تعالج قضية العقيدة، يقول صاحب الظلال: " هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل قضية الإيمان والكفر قضية الدعوة والتكذيب وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين، وفي ثنايا هذه القضية نلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين، ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله من ثم كأنه جو معركة وهي المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين " [1].

وقصة مؤمن آل فرعون لا تبعد عن جو السورة الكريمة " فهي حلقة من حلقات الصراع المستمر بين الحق والباطل منذ القدم، فهي تعرض ما يلجأ إليه الباطل أمام البرهان الواضح والدليل القاطع من الكذب والخديعة والعنف حينما لا يستطيعون الثبات علىٰ باطلهم بعد ما كشف الله سواد ظلمته بنور الحقيقة وضيائها.

وتعرض آيات سورة غافر – قبل الحديث عن دعوة مؤمن آل فرعون – صورة للحياة في عصره، وتبين للظروف الصعبة التي حمل لواء الدعوة فيها، والأوضاع التي ألهبت مشاعر هذا المؤمن، ثم حركت في قلبه إرادة التغيير، فتذكر الآيات ما واجهه نبي الله موسىٰ (عليه السلام) من فرعون وأعوانه من التكذيب والصد والإعراض " [2].

وبذلك تكون السورة الكريمة قد أعطت لدعوة المؤمن مساحة تمكن من التعرف عليه وعلىٰ الظروف التىٰ جعلته يقف مثل هذا الموقف وهذا ما سنتعرف عليه من خلال الآيات القرآنية مسترشدين بآراء المفسرين والعلماء .

---

(١) في ظلال القرآن: أ/ سيد قطب، مجلد ٧ ج ٢٤/ ١٥٩، ط: دار إحياء = = التراث العربي – بيروت، ط: السابعة ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

(٢) دعاة لا أنبياء منهاج وأساليب الدعوة في القرآن الكريم للشيخ زكريا عثمان عباس صـ٣٤٦، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية الأولىٰ ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .

قصة مؤمن آل فرعون :

رأيت من المناسب أن نبدأ الحديث بذكر رسالة سيدنا موسىٰ (عليه السلام)؛ لأن قصة مؤمن آل فرعون ترتبط ارتباطـًا وثيقـًا بدعوة سيدنا موسىٰ (عليه السلام)، ولا يمكن انفصالها عنها في هذا الموطن الذي ذكرت فيه، فهي دعوة للدفاع عن سيدنا موسىٰ (عليه السلام) والإبقاء علىٰ حياته، والإيمان بما جاء به من عند ربه .

قال تعالىٰ: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ* إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ* وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } [١].

تسوق الآيات الكريمة موقفـًا من مواقف الكفر بين " موسىٰ ومعه آيات الله ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده، وفرعون[٢] وهامان وقارون ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذي يخافون عليه من مواجهة الحق ذي السلطان" [٣].

أما عن سيدنا موسىٰ (عليه السلام) نبي بني إسرائيل وأحد أولي العزم من الرسل (عليهم الصلاة والسلام) فقد حظيت رسالته بمزيد من التفصيل والذكر في القرآن الكريم عن بقية الأنبياء والرسل(عليهم الصلاة والسلام).

وذلك " لما تحتوي عليه من الحوادث العظيمة والأنباء القيمة؛ ولأن رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأرسل رسولها هاديـًا وشارعـًا تمهيداً لشريعة تأتي لأمة أعظم منها تكون بعدها، ولأن حال المرسل إليهم أشبه بحال من

(١) سورة غافر، الآيات [٢٣ – ٢٦] .

(٢) فرعون علم جنس لملك مصر في القديم أي قبل أن يملكها اليونان وهو اسم من لغة القبط، قيل: أصله في القبطية (فاراه) ولعل الهاء مبدلة فيه عن العين فإن (رع) اسم الشمس ومعنىٰ (فاراه) نور الشمس وهذا الاسم نظير (كسرىٰ) لملك الفرس و(قيصر) لملك الروم و(نمروذ) لملك كنعان و(النجاشي) لملك الحبشة. [ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/ ٣٥].

(٣) في ظلال القرآن: ٢٤/ ١٧٦ .

أرسل إليهم سيدنا محمد (ﷺ) فإنهم كانوا فريقين كثيرين اتبع أحدهم موسىٰ وكفر به الآخر، كما اتبع سيدنا محمد (ﷺ) جمع عظيم وكفر به فريق كثير، فأهلك الله من كفر ونصر من آمن " [1].

وكان المحور الذي تدور عليه رسالة سيدنا موسىٰ (عليه السلام) بعد الإيمان بالله (عز وجل) وتوحيده هو " إطلاق بني إسرائيل، والحجة الظاهرة لهذا أنهم يريدون أن يعبدوا إلههم في البرية يعملون له عيداً " وفي العبرية حج " فهذا هو الغرض الأصلي الذي جاء موسىٰ لتنفيذه، وجاء بالآيات لحمل فرعون وقومه عليه "[2].

ومعلوم أن موسىٰ (عليه السلام) استعان في تبليغ رسالته بأخيه هارون (عليه السلام) الذي أيده الله (عز وجل) به، وذلك يدل علىٰ عتو القوم وتجبرهم، وإن لم يكن ورد لهارون (عليه السلام) ذكر في هذه القصة، كما أيده رب العزة (سبحانه وتعالى) بالمعجزات الظاهرة والآيات البينة .

والآيات الكريمة تذكر أن موسىٰ (عليه السلام) أرسل إلىٰ فرعون الذي أضحىٰ لطغيانه وجبروته كأنه لا يحتاج إلىٰ تعريف، فأول ما ينصرف الذهن عند سماع هذا اللقب ينصرف إلىٰ فرعون موسىٰ (عليه السلام)، وكأن حكام مصر في الأزمنة التي قبله أو من جاءوا بعده لم يكونوا فراعنة .

واسم فرعون " الذي أرسل موسىٰ إليه منفطاح الثاني أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر علىٰ ترتيب المؤرخين من الافرنج وذلك سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح " [3].

وجدير بالملاحظة أن حديث القرآن عن فرعون ووصفه بهذا اللقب في زمن موسىٰ (عليه السلام) فيه نوع من أنواع الإعجاز يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (رحمه الله): " والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر في القديم وفي الحديث يسميهم

---

(١) التحرير والتنوير: ٩/ ٣٤ .

(٢) قصص الأنبياء : أ/ عبد الوهاب النجار صـ١٨١، ط: مؤسسة الحلبي وشركاه .

(٣) التحرير والتنوير: ٩/ ٣٥، وتاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: أد/ محمد عزة دروزة صـ٦٩، ط: المكتبة العصرية – بيروت ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .

فراعنة، كما في قوله – تعالىٰ –: { وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ }[1] وهنا في قصة موسىٰ (عليه السلام) قال – أيضًا –: فرعون، أما في قصة يوسف (عليه السلام) فلم يأت ذكر للفراعنة إنما قال " الملك " [2] وهذه من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم؛ لأن الحكم في مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ولم يكن للفراعنة حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا ملكهم من ملوك الرعاة " [3].

وأما هامان فلعله اسم لوزير فرعون مصر يقول الأستاذ/ عبد الوهاب النجار[4]: " ما هو هامان ؟ وما هو منصبه ؟ وهل لفظ " هامان " علم له أو علم علىٰ منصبه الذي يشغله ؟ ليس عندنا في ذلك أثارة من علم والذي أفهمه أنه وزير العمارات عند فرعون " [5].

ويبدو من حديث القرآن الكريم عن هذا الوزير أنه كان له نفوذ في المملكة المصرية، وحظوة عند فرعون الملك .

وربما كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة كما نقول الآن: الحرس الجمهوري والملكي والحرس الشخصي والجيش أو أن هامان هو الذي يتولىٰ تدبير شئون المملكة، وأن الملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه، وفي هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان أو أن سلطته لا تقل أهمية عن سلطة فرعون[6].

---

(1) سورة الفجر الآية [١٠] .

(2) سورة يوسف من الآية [٤٣] .

(3) تفسير الشعراوي = خواطر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم: ١٧/ ١٠٨٧٢، ١٠٨٧٣، ط: أخبار اليوم.

(4) عبد الوهاب بن أحمد النجار: ولد سنة ١٨٦٢م، عالم، أديب، مؤرخ، فقيه، مشارك في علوم اللغة والشريعة والطبيعة والكيمياء وغيرها ، ملم ببعض اللغات السامية . ولد في القرشية من قرىٰ الغربية بمصر، وتعلم بها، ثم = = في طنطا ، وانتقل إلىٰ القاهرة ، فتخرج بمدرسة دار العلوم ، واشتغل بالمحاماة الشرعية ، ثم عين مدرسا للأدب والشريعة في كلية الخرطوم فأستاذا للأدب في مدرسة البوليس بالقاهرة ، فأستاذا للتاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية القديمة ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٤١هـ . [معجم المؤلفين عمر كحالة: ٦/ ٢٣٤، الناشر: مكتبة المثنىٰ – بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت].

(5) قصص الأنبياء: أ/ عبد الوهاب النجار صـ١٨٧.

(6) تفسير الشعراوي: ١٧/ ١٠٨٧٧ بتصرف يسير .

والثالث الذي ورد ذكره في الآية الكريمة قارون، وقد ذكر الله (ﷻ) في سورة القصص أنه كان من بني إسرائيل، وآتاه الله (ﷻ) من الكنوز الكثيرة لكنه بغي عليهم قال – تعالىٰ -: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } [1].

يقول الإمام ابن كثير[2]: " كان قارون إسرائيلياً إلا إنه كان علىٰ دين فرعون وملئه وكان ذا مال جزيل جداً " [3].

وقيل: إن قارون كان وزير فرعون الثاني المختص بشئون بني إسرائيل في مصر اشتراه فرعون بالأموال والمنافع الكثيرة وقربه فجعله وزيره الثاني[4] .

وقيل: " إنه كان منقطعاً إلىٰ فرعون وخادماً له " [5].

ولقد استبعد الإمام الطاهر بن عاشور[6] هذا الرأي وجزم بأنه كان في زمرة من خرج مع موسىٰ (عليه السلام)[7].

وأميل إلىٰ الرأي الأول وأنه كان علىٰ دين فرعون وربما كان مقرباً منه إلا إنه لما علم من قومه بخروجهم كان في جملة من خرج مع موسىٰ (عليه السلام) فالذي أفهمه أن

(1) سورة القصص، من الآية [٧٦] .

(2) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، ولد بقرية شرقىٰ بصرىٰ من أعمال دمشق سنة ٧٠١ هـ، كان قدوة العلماء والحفاظ، من مؤلفاته: الأحكام علىٰ أبواب التنبيه، والتاريخ المسمىٰ بالبداية والنهاية، والتفسير، مات سنة ٧٧٤ هـ [انظر: شذرات الذهب فىٰ أخبار من ذهب لابن عماد الحنبلىٰ: ٦/ ٢٣١، ط: المكتب التجارىٰ للطباعة والنشر، بيروت] .

(3) البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق: علي شيري: ١/ ٣٠٠٠، ط: دار إحياء التراث العربي الأولىٰ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(4) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: أد/ حسن عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١٢/ ٣٥٣، ط: دار القلم – دمشق، ط: الثانية ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م .

(5) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٢ .

(6) الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، ولد بتونس مولده ووفاته ودراسته بها. ولد سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، عين (عام ١٩٣٢) شيخا للإسلام مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، توفىٰ سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. [ينظر: الأعلام للزركلىٰ: ٦/ ١٧٣].

(7) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٢ .

موسىٰ خرج معه جميع الإسرائيليين من مصر وإن كان منهم غير مؤمنين، فالذين آمنوا بموسىٰ (عليه السلام) من بني إسرائيل كانوا قليلين قال – تعالىٰ -: { فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ }[1].

وتخصيص الحق – تبارك وتعالىٰ – لهؤلاء الثلاثة بالذكر ههنا " لأن مدار التدبير في عداوة موسىٰ كان عليهم "[2].

وأما عن عدة موسىٰ (عليه السلام) في هذا اللقاء فقد أيده المولىٰ (جل وعلا) بالآيات والسلطان المبين أي: بالمعجزات الباهرة والنبوة[3].

وكان ردهم عليه أنهم اتهموه بالسحر والكذب، مما يدل علىٰ عنادهم وجهالتهم؛ " لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت في القوة والظهور إلىٰ حيث يشهد كل ذي عقل سليم بأنه ليس من السحر البتة "[4].

ويجمل السياق " تفصيل ما حدث بعد هذا الجدال ويطوي موقف المباراة مع السحرة وإيمانهم بالحق الذي غلب باطلهم ولقف ما يأفكون، ويعرض الموقف الذي تلا هذه الأحداث: { فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ } "[5].

جاءهم بالحق يعني " أظهر لهم الآيات الحق أي الواضحة، و" من عندنا " وصف للحق لإفادة أنه حق خارق للعادة لا يكون إلا من تسخير الله وتأييده وهو آيات نبوته التسع "[6].

---

(1) سورة يونس الآية [83].

(2) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي: 15/ 303، ط: دار الكتاب العربي 1387هـ 1967م.

(3) ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام الرازي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين وأحمد شمس الدين، مجلد 14 ج 27/ 47، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الرابعة 1434هـ 2013م.

(4) مفاتيح الغيب للرازي: 27/ 47.

(5) في ظلال القرآن: 24/ 176، وينظر: السيرة الموسوية سيرة موسىٰ في الكتاب والسنة دروس وعبر للشيخ مصطفىٰ عمر صـ150، ط: الدار العالمية، ط: الأولىٰ 1430هـ 2009م، والآية من سورة غافر من الآية [25].

(6) التحرير والتنوير: 24/ 122.

وهي غير الآيات التي أرسل بها موسىٰ (عليه السلام) إلىٰ بني إسرائيل والمذكورة في قوله – تعالىٰ –: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ } (1) فهي آيات أرسل بها موسىٰ (عليه السلام) إلىٰ بني إسرائيل وأحكام أمروا بالأخذ بها، أما تلك فآيات عقاب عوقب بها فرعون وجنوده وهي: السنون، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم (2).

ومع كل هذا لم يكتف فرعون ومن معه باتهام موسىٰ (عليه السلام) بالسحر والكذب بل كان هناك اقتراح بقتل أبناء الذين آمنوا من الذكور واستبقاء الإناث قال – تعالىٰ –: { قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ } (3).

وهنا يظهر نوع من أنواع الإعجاز فمن " البيان المعجز ذكر قارون في سياق توعدهم بالقتل لمن آمن من بني إسرائيل ليخرج قارون من الوعيد، وليشعر السامع أن من القائلين قارون أو وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسىٰ (عليه السلام) والمؤمنين من قومه"(4).

وأرادوا من ذلك " أن يرهبوا أتباعه حتىٰ ينفضوا عنه فلا يجد أنصاراً ويبقىٰ بنوا إسرائيل في خدمة المصريين " (5).

والخطاب لفرعون خطاب تعظيم (6).

وقد كان فرعون قد فعل ذلك ببني إسرائيل في زمن ولادة موسىٰ (عليه السلام) قال تعالىٰ: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (7).

---

(1) سورة الإسراء، من الآية [101].

(2) قصص الأنبياء: أ/ النجار صـ197 بتصرف.

(3) سورة غافر الآية [25].

(4) الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون: ماجد بن محمد الماجد صـ4، ط: مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد 5، العدد2 لسنة 2008م.

(5) التحرير والتنوير: 24/ 123.

(6) ينظر: المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(7) سورة القصص الآية [4].

ويبدو أنهم لم ينفذوا هذا الأمر إما لأنهم شغلهم عن إنفاذه ما حل بهم من المصائب التي ذكرت في قوله تعالىٰ: { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }[١] وفي قوله تعالىٰ: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ } [٢].

وإما لأن هذا الاقتراح لم يكن موضع رضا من فرعون، ولم يلق عنده قبولاً وهو الأغلب، فقد كان لفرعون رأي آخر قال تعالىٰ: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [٣].

وهل كان قوله هذا يجد ممانعة ومعارضة ؟ مما يدل عليه قوله: {ذَرُونِي} هناك **احتمالان: الأول**: أنه أراد بقوله: { ذَرُونِي } " إعلامهم بعزمه بضرب من إظهار ميله لذلك، وانتظاره الموافقة عليه بحيث يمثل حاله وحال المخاطبين بحال من يريد فعل شيء فيصد عنه، فلرغبته فيه يقول لمن يصده: دعني أفعل كذا ... ولم يكن ثمة معارض أو ممانع، وهو استعمال شائع في هذا وما يرادفه مثل: دعني وخلني ... وذلك يستتبع كناية عن خطر ذلك العمل وصعوبة تحصيله؛ لأن مثله مما يمنع المستشار مستشيره من الإقدام عليه " [٤].

أما الاحتمال الثاني: أن رأيه بقتل موسىٰ كان يجد " ممانعة ومعارضة من ناحية الرأي، كأن يقال مثلاً: إن قتل موسىٰ لا ينهي الإشكال فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع، وإعلانهم سبب إيمانهم، وهم الذين جيء بهم ليبطلوا عمله ويناوئوه .. وقد يكون بعض مستشاري الملك أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسىٰ له ويبطش بهم " [٥].

(١) سورة الأعراف الآية [١٣٠].
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٤، والآية من سورة الأعراف الآية [١٣٣].
(٣) سورة غافر الآية [١٢٦].
(٤) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٤، ١٢٥ باختصار.
(٥) في ظلال القرآن: ٢٤/ ١٧٧، ١٧٨.

وقد كان موسىٰ (عليه السلام) " خوفهم عذاب الله وتحداهم بالآيات التسع "[1].

ولعل فرعون – لعنه الله – توقع أن يجد مثل هذا الرأي معارضة من قومه وممانعة خشية من إله موسىٰ (عليه السلام) فقال لهم: دعوني أفعل هذا الأمر ولينتصر موسىٰ بربه، وبين لهم فرعون سبب عزمه علىٰ ذلك بقوله: { إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } ويظهر من قول فرعون هذا ما ينطوي عليه من مكر وخداع، ويظهر في هذا الموقف خبثه " فقد جعل الدين الذي يدينون به – والذي سبق أن أرغمهم عليه – وكأنه نابع منهم وكأنهم هم الذين اختاروه، وبالتالي فهم حريصون عليه، ثم يعلن حرصه علىٰ ما هم حريصون عليه من دين الآباء والأجداد، وهكذا نصب فرعون نفسه إلهـًا، ثم أرغم قومه علىٰ التعبد له، ثم ادعىٰ أنهم راضون بما فرضه عليهم فجعل نفسه حارسـًا لإرادتهم الشعبية خائفـًا أن يبدلها موسىٰ "[2].

وإما أن يصنع موسىٰ أمراً آخر، وهو: { أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } فأي فساد يخشاه فرعون من دعوة موسىٰ (عليه السلام) ؟ إن الفساد الذي يخشاه فرعون " هو فساد قومه عليه وخروجهم من قبضة يده، وذهاب سلطته وسلطانه، فالفساد الذي يخشاه هو ذهاب ملكه؛ لأنهم إذا رأوا الفرق بين طريق رسول الله وبين طريق ألد أعدائه رغبوا في طريق موسىٰ وفي ذلك فساد خطة فرعون وضياع ملكه "[3].

وهكذا أقنع فرعون قومه بأن الحل ليس فيما اقترحوه عليه إنما عليهم أن يأخذوا برأيه، ويعاونوه فيما عزم عليه من قتل موسىٰ (عليه السلام)، ويبدو أنه بلغه ما يدبره له فرعون فقال ما حكاه القرآن عنه { وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ }[4].

(1) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٥ .

(2) الفرعونية كما صورها القرآن الكريم: أ/ محمد عبد الرحمن السيد عوض صـ١٧٧، ١٧٨، ط: مكتبة السلام العالمية.

(3) دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ للشيخ محمد أحمد العدوىٰ صـ٢٩٣، ط: الإيمان .

(4) سورة غافر الآية [٢٧] .

وهـذا الكـلام مـن موسـىٰ (عليه السلام) " في غيـر حضـرة فرعـون؛ لأن موسـىٰ لـم يكـن ممـن يضمه ملأ استشارة فرعون... ولكن موسىٰ لما بلغه ما قال فرعون في ملائه قال موسىٰ في قومه: { إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم } "[1].

فيكون قوله هذا خطاب لقومه من بني إسرائيل تطميناً لهم وتسكيناً لإشفاقهم عليه من بطش فرعون .

والمعنىٰ: إني أعددت العدة لدفع بطش فرعون الاستعاذة بالله (عز وجل) من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وفي مقدمة هؤلاء المتكبرين فرعون[2].

وما أقوىٰ هذا الملاذ الذي يلجأ إليه كل مؤمن ويحتمي به من بطش الكائدين والكافرين، وفي هذه الآية إخبار من الله (سبحانه وتعالى) أن فرعون – لعنه الله – " فوق تجبره وتكبره ينكر البعث والنشور ويوم الجزاء، ومن كان كذلك فهو جدير أن يستعاذ منه"[3].

لذلك خص موسىٰ (عليه السلام) يوم الحساب بالذكر؛ لأنه اليوم الذي يحاسب فيه كل إنسان عما قدمت يداه، ولو آمن به الطاغية لعمل له ألف حساب، ولما أقدم علىٰ ما يفعله[4].

وشاع خبر توعد موسىٰ بالقتل، وهنا قيض الله (سبحانه وتعالى) للحق من يدافع عنه ويقف في وجه فرعون ليرده عن عزمه قال تعالىٰ: { وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }[5].

(1) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٦ باختصار .
(2) ينظر: المرجع السابق: نفس الجزء والصفحة .
(3) ينظر: دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ للعدوي صـ٢٩٣ .
(4) ينظر: الفرعونية كما صورها القرآن الكريم صـ٧٨، ٧٩ .
(5) سورة غافر، الآيتان [٢٨، ٢٩] .

وسوق هذه الآية معطوفة علىٰ ما قبلها "يقتضي أنه قال قوله هذا في غير مجلس شورىٰ فرعون؛ لأنه لو كان قوله جاريـاً مجرىٰ المحاورة مع فرعون في مجلس استشارته أو كان أجاب به عن قول فرعون: " ذروني أقتل موسىٰ " لكانت حكاية قوله بدون عطف علىٰ طريقة المحاورات .

والذي يظهر أن الله ألهم هذا الرجل بأن يقول مقالته إلهامـاً كان أول مظهر من تحقيق الله لاستعاذة موسىٰ بالله، فلما شاع توعد فرعون بقتل موسىٰ (عليه السلام) جاء هذا الرجل إلىٰ فرعون ناصحاً ولم يكن يتهمه فرعون لأنه من آله " [1].

وأراد الرجل المؤمن بقوله: " أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا " إلىٰ آخره " أن يسعىٰ لحفظ موسىٰ من القتل بفتح باب المجادلة في شأنه لتشكيك فرعون في تكذيبه بموسىٰ، وهذا الرجل هو غير الرجل المذكور في سورة القصص في قوله تعالىٰ: { وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَىٰ الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ }[2] فإن تلك القصة كانت قبيل خروج موسىٰ من مصر وهذه القصة في مبدأ دخوله مصر، ولم يوصف هنالك بأنه مؤمن ولا بأنه من آل فرعون بل كان من بني إسرائيل " [3].

وأما قوله: { وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ } فهو ارتقاء في الحجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجه ارتقىٰ إلىٰ التصريح بصدق موسىٰ (عليه السلام) بعلة أنه جاء بالحجج الواضحة التي تؤيد صدقه، وإلىٰ التصريح بأن الذي سماه الله في قوله: { أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ } هو رب المخاطبين [4].

ثم إن الرجل المؤمن أراد أن يحتاط لنفسه " خشية أن يعرف اللعين حقيقة أمره فيبطش به فتلطف في الاحتجاج فقال: { وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ } لا يتخطاه وبال

---

(1) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٧، ١٢٨، وينظر: مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٥٢ .

(2) سورة القصص الآية [٢٠] .

(3) التحرير والتنوير ٢٤/ ١٢٩، وينظر: نماذج بشرية من القرآن العظيم: أ/ أحمد محمد طاحون: ٤/ ١٨٤، ط: مكتبة التراث الإسلامي، ط: الأولىٰ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

(4) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٢٩، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانىٰ للألوسي: ٢٤/ ٦٤، ط: دار إحياء التراث العربىٰ – بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ومعارج التفكر ودقائق التدبر: ١٢/ ٣٥٨ .

كذبه فيحتاج في دفعه إلىٰ قتله { وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ } فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذي يعدكم به أو يعدكموه وفيه مبالغة في التحذير، فإنه إذا حذرهم من إصابة البعض أفاد أنه مهلك مخوف فما بال الكل، وإظهاراً للإنصاف وعدم التعصب، ولذا قدم احتمال كونه كاذباً .

وقيل: المراد يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مواعيده كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم، وقيل: بعض بمعنىٰ كل "[1].

وأما قوله: { إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } فهو نوع آخر من أنواع الاحتجاج " **ذو وجهين**: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله – تعالىٰ – إلىٰ البينات ولما عضده بتلك المعجزات .

وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله – تعالىٰ – وأهلكه فلا حاجة لكم إلىٰ قتله، ولعله أراد به المعنىٰ الأول وأوهمهم أنه أراد الثاني لتلين شكيمتهم، وعرّض لفرعون بأنه مسرف أي في القتل والفساد، وكذاب في ادعاء الربوبية لا يهديه الله – تعالىٰ – سبيل الصواب ومنهاج النجاة "[2].

وبعد أن بين لهم الرجل المؤمن أنه لا حاجة لهم في قتل موسىٰ متعمداً عدم ذكر اسمه فيكفيهم أن يكفوه عن دعوته ويمنعوه منها فليس هناك ضرر يعود عليهم من كذبه، وإنما الخشية من أن يكون صادقاً فيصيبهم بعض مواعيده قال لهم مخوفاً: { يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءنَا } يقول الإمام الرازي[3] عند تفسيره لهذه الآية: " اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام

(١) روح المعاني: ٢٤/ ٦٤ .

(٢) روح المعاني ٢٤/ ٦٤، وينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٥٧ .

(٣) الفَخْر الرَّازِي: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبدالله، فخر الدين الرازيّ، الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ولد سنة ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م، رحل إلىٰ خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م. [ينظر: الأعلام للزركلي: ٦/ ٣١٣].

أنواع الدلائل علىٰ أنه لا يجوز الإقدام علىٰ قتل موسىٰ خوفهم من ذلك بعذاب الله فقال: { يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ } "[1].

والظهور في الأرض يعني الغلبة والعلو علىٰ بني إسرائيل في أرض مصر لا يقاومهم أحد في هذا الوقت[2].

{ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءنَا } يعني " إن لكم اليوم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تسرفوا علىٰ أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله أي عذابه فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه فيما يسؤهم من مجيء بأس الله – تعالىٰ – إمحاضاً[3] للنصح وإيذاناً بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه "[4].

وما أقدم علىٰ ذلك إلا لشعوره بقبول حجته لديهم، فلما آنس ذلك منهم وعلم أن موعظته وجدت قبولا لديهم " وأنها داخلت نفوسهم أمن بأسهم وانتهز فرصة انكسار قلوبهم فصارحهم بمقصوده من الإيمان بموسىٰ علىٰ سنَنَ الخطباء وأهل الجدل بعد تقرير المقدمات والحجج أن يهجموا علىٰ الطرف المقصود فوعظهم بهذه الموعظة .

وأدخل قومه في الخطاب فناداهم ليستهويهم إلىٰ تعضيده أمام فرعون فلا يجدون بدا من الانصياع إلىٰ اتفاقهم وتظاهرهم، وأيضاً فإن في إشراك قومه في الموعظة أدخل في باب النصيحة فابتدأ بنصح فرعون؛ لأنه الذي بيده الأمر والنهي وثنىٰ بنصيحة الحاضرين من قومه تحذيراً لهم من مصائب تصيبهم من جراء امتثالهم أمر فرعون بقتل موسىٰ فإن ذلك يهمهم كما يهم فرعون .

---

(1) مفاتيح الغيب: ٢٧/ ٥٢ .

(2) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، تحقيق: عمر أحمد الراوي، مراجعة: عبد السلام العمراني: ٦/ ٣٠٤، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثانية ٢٠٠٥م .

(3) إمحاضا: أمحضت له النصح: إذا أخلصته . [ينظر: لسان العرب: ٧/ ٢٢٨، مادة (محض)].

(4) السابق: نفس الجزء والصفحة .

وهـذا الترتيـب في إسـداء النصيحة نظـير الترتيب في قـول النبـي (ﷺ): " ولأئمـة المسـلمين وعـامتهم "[1] ولا يخفىٰ مـا في نـدائهم بعنـوان أنهـم قومـه مـن الإستصـغاء لنصحه وترقيق قلوبهم لقوله " [2].

وهذا ما كـان يخشـاه فرعـون فأجاب علىٰ المـؤمن ورد عليه كلامـه قـال تعـالىٰ: { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [3].

فقد فطن فرعون إلىٰ أنه " المعرّض به في خطاب الرجل المؤمن قومه فقاطعه كلامه وبين سبب عزمه علىٰ قتل موسىٰ (ﷺ) بأنه ما عرض عليهم ذلك إلا لأنـه لا يـرىٰ نفعـًا إلا في قتل موسىٰ ولا يستصوب غير ذلك ويرىٰ ذلك هـو سـبيل الرشـاد، وكأنـه أراد ألا يترك لنصيحة مؤمنهم مـدخلاً إلـىٰ نفـوس ملئه خيفـة أن يتـأثروا بنصـحه فـلا يساعدوا فرعون علىٰ قتل موسىٰ " [4].

فقال لهم: { مَـا أُرِيكُـمْ إِلَّا مَـا أَرَىٰ } أي " مـا أقـول لكـم وأشـير علـيكم إلا مـا أراه لنفسي، وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسىٰ فيما جاء بـه مـن الرسـالة { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ } [5] قال الله تعـالىٰ: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [6] فقولـه: " مَـا أُرِيكُـمْ إِلَّا مَـا أَرَىٰ " كذب فيه وافترىٰ وخان الله ورسوله ورعيته فغشهم وما نصحهم، وكذا قولـه: { وَمَـا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } أي: وما أدعوكم إلا إلىٰ طريق الحق والصدق والرشد .

---

(1) نص الحديث: « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا: لِمَنْ ؟ قَالَ: « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » [صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله (ﷺ): ١/ ٧٤، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم ٥٥، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت].

(2) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٣١، ١٣٢ .

(3) سورة غافر من الآية (٢٩).

(4) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٣٣ .

(5) سورة الإسراء، من الآية (١٠٢) .

(6) سورة النمل، من الآية (٤) .

وقد كذب – أيضاً – في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال تعالىٰ: { فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } "[1].

وحاول فرعون بكلامه هذا أن يصدهم عن قبول دعوة الرجل المؤمن، فهو لا يستصوب كلامه، وهو لا يرىٰ لهم إلا ما يراه لنفسه، وما يدعوهم إليه هو طريق الصواب والرشد من وجهة نظره، عندئذٍ توجه المؤمن إليهم مخوفاً ومحذراً قال تعالىٰ: { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ }[2].

ومما يلفت النظر في كلام المؤمن هذه المرة أنه لم " يكن فيه تعريج علىٰ محاورة فرعون ... لئلا يتوهم أنه يقصد به مراجعة فرعون، ولكنه قصد إكمال خطابه "[3].

ولو حدث منه تعريج علىٰ كلام فرعون لفات مقصوده وانشغل بالحجاج والجدال مع فرعون، فأكمل دعوته محذراً إياهم " بأس الله في الدنيا والآخرة فقال: { يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد "[4].

وهل كان المصريون علىٰ علم بما حل بهؤلاء الأقوام ومن بعدهم ؟ كلامه هذا يقتضي أن المصريين " كانوا علىٰ علم بما حل بقوم نوح وعاد وثمود، فأما قوم نوح فكان طوفانهم مشهوراً، وأما عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصرية وكان عظيماً لا يخفىٰ علىٰ مجاوريهم "[5].

ولم يكن في هذا الجزاء الذي حل بهم ظلم لهم؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

---

(١) فقه الدعوة من قصة موسىٰ (ﷺ): أ.د/ محمود محمد محمد عمارة صـ١٣٢، ١٣٣، ط: السلام العالمية، والآية من سورة هود من الآية [٩٧] .

(٢) سورة غافر الآيتان [٣٠، ٣١] .

(٣) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٣٣/ ١٣٤ باختصار .

(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، تحقيق: د/ محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، وعبد العزيز غنيم: ٧/ ١٣٢، ط: دار الشعب .

(٥) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٣٥ .

ثم قال لهم الرجل المؤمن بعد أن ذكرهم بما حل بمكذبي الرسل من قبلهم: { وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } (1) .

وفي هذا تخويف لهم من العذاب الأخروي بعد أن خوفهم من عذاب الدنيا ، ووصف يوم القيامة بيوم التناد في هذا المقام يعد من بديع البلاغة، كي يذكرهم أنه في موقفه بينهم يناديهم بـ" يا قوم " ناصحاً لهم ومريداً خلاصهم من كل نداء مفزع في يوم القيامة، ويريد تأهيلهم لكل نداء سار فيه محبب لديهم (2).

وقوله: { وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } فيه " تعريض بتوقعه أن يكون فرعون وقومه من جملة هذا العموم، وآثر لهم هذا دون أن يقول: { وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ } لأنه أحس منهم الإعراض، ولم يتوسم فيهم مخايل الانتفاع بنصحه وموعظته " (3).

ولم يكتف الرجل المؤمن بتخويفهم من العذاب الدنيوي الذي حل بمن سبقهم من الأمم الكافرة، وتخويفهم من عذاب الآخرة وأنه لا عاصم لهم في هذا اليوم من أمر الله بل ذكرهم برسالة يوسف (عليه السلام) فقال: { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ } (4).

فاستعاد معهم " نبوة يوسف في بلاد مصر وما كان منه من الإحسان إلىٰ الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلىٰ توحيد الله وعبادته، وألا يشركوا به أحداً من بريته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل، ولهذا قال: { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ

---

(1) سورة غافر الآيتان [٣٢، ٣٣] .

(2) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٣٦ .

(3) التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٣٨ .

(4) سورة غافر الآية [٣٤] .

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا } أي: وكذبتم في هذا " (١).

أما قوله: { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ } فيعني " مثل هذا الخذلان المبين يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه " (٢).

ثم جاء بعد هذه الآية قوله تعالىٰ: { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} (٣).

ولقد اختلف المفسرون في قوله تعالىٰ: { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } (٤) هل هو من كلام المؤمن أم من كلام الله (ﷻ) ؟ ويذكر الإمام الطاهر بن عاشور أن بعض المفسرين جرىٰ " علىٰ أن هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن، وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن وبعضها كلامـًا من الله تعالىٰ ... والذي يظهر أن قوله: { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ } إلىٰ قوله: { جَبَّارٍ } كله من كلام الله تعالىٰ معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون فإن هذا من المعاني الإسلامية قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسىٰ تعريضـًا بمشركي قريش أي: كضلال قوم فرعون يضل الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم فكذلك يكون جزاؤكم " (٥).

وقد بين الحق (جل وعلا) سبب هذا التكذيب والجدال فأخبر أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلىٰ هذا كبر في نفوسهم عن الحق مع صغر شأنهم وضآلتهم عن الكبر ثم يوجه القلوب حينئذ إلىٰ هذا الوجود الكبير الذي

---

(١) قصص القرآن لابن كثير صـ٣٣٧، ٣٣٨، تحقيق: خليل الميس، ط: دار القلم – بيروت .

(٢)الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فىٰ وجوه التأويل للزمخشرىٰ: ٣/ ٤٢٧، ط: مطبعة مصطفىٰ البابىٰ الحلبىٰ، ط: الأخيرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م.

(٣) سورة غافر الآية [٣٥] .

(٤) سورة غافر من الآية [٣٤]، والآية [٣٥] .

(٥) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٤١ باختصار، وينظر: المحرر الوجيز: ٧/ ٤٤٢ .

خلقه الله وهو أكبر من جميع البشر لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله وتتفتح بصيرتهم [1].

وقوله تعالىٰ: { كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا } فيه " تقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام " [2].

وكما ختم الله (ﷻ) علىٰ قلوب السابقين فلم يهتدوا إلىٰ الحق كذلك يختم علىٰ قلوب المتكبرين الجبارين فلا يبصروا الحق ولا يتبعوه .

وعاد فرعون إلىٰ مقاطعة كلام الرجل المؤمن قال تعالىٰ: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} [3] فأصدر أمره إلىٰ وزيره هامان أن يبني له صرحـًا، وما فعل فرعون ذلك إلا لخشيته من تأثر بعض ملئه بكلام الرجل المؤمن " فعلق بدهائه الأمر علىٰ اتخاذ وسيلة من وسائل البحث للتأكد من صحة كون موسىٰ رسولاً من ربه، وأعرض عن فكرة قتله، وتنازل عن القطع بأنه كاذب مكتفيـًا ببيان أنه يظنه كاذبـًا .

وقد طرح وسيلة يطول أمد تحقيقها فقال لوزيره الأول: يا هامان ابن لي صرحـًا (أي: قصرا عاليـًا) لعلي أبلغ إلىٰ أسباب علوية أصل بوساطتها إلىٰ السماوات فأطلع هناك إلىٰ إله موسىٰ فأعرف منه هل موسىٰ رسوله حقا أم لا ؟! وقذف القضية بهذه الحيلة الشيطانية وعلقها علىٰ أمر خرافي متعذر التحقيق وهو يشعر بأن قومه: إنما هم سذج يرون أن لفرعون قدرات تمكنه إذا بنىٰ الصرح العالي من اتخاذ أسباب توصله إلىٰ السماء وهنالك يطلع إلىٰ إله موسىٰ، وإما شياطين مثله يواطؤونه علىٰ ضلاله ويعرفون ميله وأكاذيبه فهم شركاؤه في الملك والسلطان والمنافع .

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن الكريم: ٢٤/ ١٦٢ .

(٢) روح المعاني: ٢٤/ ٦٨ .

(٣) سورة غافر الآيتان [٣٦، ٣٧] .

وبهذا قطع بحث قضية موسىٰ داخل البلاط الفرعوني بانتظار بناء الصرح واتخاذ الأسباب إلىٰ السماء " [1].

ويذكر المفسرون أن هامان بني له الصرح حتىٰ بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء ثم صعد فرعون وصوب سهماً إلىٰ السماء فرمىٰ به فعاد إليه النصل مخضباً بالدم تهكماً به فقال: لقد قتلت إله موسىٰ [2].

وبمثل ذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن سبيل الإيمان بالله (ﷻ) وما مآل هذا الكيد من فرعون إلا التباب أي "الهلاك والخسران" [3].

وهنا شعر الرجل المؤمن بأن الكلام فيه مخادعة من فرعون ومحاولة لاستمالة الملأ إليه وعدم الاستماع لكلام هذا الرجل مع ما في ذلك من هلاكهم وخسرانهم فقال ما حكاه القرآن الكريم عنه: { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} [4].

ولعل هذا المؤمن ظل محتفظاً بإخفاء إيمانه إلىٰ هذه اللحظة، فلما تيقن أن الملأ من قومه مصممون علىٰ إتباع فرعون أعلن لهم إيمانه وكاشفهم بذلك، ثم اتجه بدعوته إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ الإيمان بما جاء به موسىٰ (ﷺ) واتباع دعوته، يقول الإمام الطاهر بن عاشور عند تفسيره لهذه الآية " هذا مقال في مقام آخر قاله مؤمن آل فرعون فهذه المقالات المعطوفة بالواو مقالات متفرقة .. فابتدأ موعظته بندائهم ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم وبعنوان أنهم قومه لتصغىٰ إليهم أفئدتهم ورتب خطبته علىٰ أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل فابتدأ بقوله { اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} وسبيل الرشاد مجمل وهذا علىٰ إجماله مما تتوق إليه النفوس، فربط حصوله باتباعهم إياه مما يقبل بهم علىٰ تلقي ما يفسر هذا السبيل

(١) فقه الدعوة إلىٰ الله عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: ٢/ ٣٩١.
(٢) ينظر: قصص الأنبياء للنجار ص١٨٩، ١٩٠ .
(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥٩ .
(٤) سورة غافر من الآية [٣٨].

ويسترعي أسماعهم إلىٰ ما يقوله إذ لعله سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم إذ قد يظنون أنه نقح رأيه، ونخل مقاله، وأنه سيأتي بما هو الحق الملائم لهم " (١).

فقد يكون قومه علىٰ علم بما يحدث في القصر الفرعوني وما كان بينه وبين فرعون وملائه فعرض ولم يصرح " بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي " (٢).

ثم وجه إليهم خطابه ببيان حقيقة الدنيا التي يخشىٰ أن تكون هي التي تمنعهم من اتباعه، وحقيقة الآخرة التي قد يكونون في غفلة عنها فقال: { يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} (٣).

فزهدهم في الدنيا الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم في طلب الثواب من الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه والذي يعطي علىٰ القليل كثيراً ومن عدله أنه لا يجازي علىٰ السيئة إلا مثلها وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمنـًا قد عمل الصالحات فله الدرجات العالية والأرزاق الدائمة (٤).

ويبدو أنه كانت هناك محاولات لجذبه إلىٰ عقيدتهم والإقلاع عن دعوته فقال لهم: { وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ } (٥).

وفي هذه المرة " أعاد نداءهم وعطفت حكايته بواو العطف للإشارة إلىٰ أن نداءه اشتمل علىٰ ما يقتضي في لغتهم أن الكلام قد تخطىٰ من غرض إلىٰ غرض، وأنه سيطرق ما يغاير أول كلامه مغايرة ما تشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب، وأنه سيرتقي باستدراجهم في دَرَج الاستدلال إلىٰ المقصود بعد المقدمات، فانتقل هنا إلىٰ

(١) التحرير والتنوير: ٢٤/١٤٨، ١٤٩، وينظر: قصص الأنبياء لابن كثير صـ٣٣٩، وفقه الدعوة إلىٰ الله للميداني: ١/ ٣٩١ .

(٢) روح المعاني صـ٢٣، ٧٠ .

(٣) سورة غافر الآية [٣٩، ٤٠] .

(٤) قصص الأنبياء لابن كثير صـ٣٣٩ بتصرف .

(٥) سورة غافر الآيتان [٤١، ٤٢] .

أن أنكر عليهم شيئاً جرىٰ منهم نحوه، وهو أنهم أعقبوا موعظته إياهم بدعوته للإقلاع عن ذلك وأن يتمسك بدينهم، وهذا شيء طوي في خلال القصة دلت عليه حكاية إنكاره عليهم ... فصرح هنا وبين بأنه لم يزل يدعوهم إلىٰ اتباع ما جاء به موسىٰ وفي اتباعه النجاة من عذاب الآخرة فهو يدعوهم إلىٰ النجاة حقيقة، وليس إطلاق النجاة علىٰ ما يدعوهم إليه بمجاز مرسل بل يدعوهم إلىٰ حقيقة النجاة "[1].

والتعقيب بالعزيز الغفار والعدول عن لفظ الجلالة " لإدماج الاستدلال علىٰ استحقاقه الإفراد بالإلهية والعبادة بوصفه " العزيز "؛ لأنه لا تناله الناس بخلاف أصنامهم فإنها ذليلة توضع علىٰ الأرض ويلتصق بها القتام[2] وتلوثها الطيور بذرقها[3] ولإدماج ترغيبهم في الإقلاع عن الشرك بأن الموحد بالألوهية يغفر لهم ما سلف من شركهم به حتىٰ لا ييأسوا من عفوه بعد أن أساؤا إليه "[4].

ثم استمر الرجل المؤمن في دعوته لقومه قائلاً لهم { لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَىٰ اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ }[5]، وهذا القول منه " واقع موقع التعليل لجملتي { مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ }؛ لأنه إذا تحقق أن لا دعوة للأصنام في الدنيا بدليل المشاهدة ولا في الآخرة بدلالة الفحوىٰ فقد تحقق أنها لا تنجي أتباعها في الدنيا ولا يفيد دعاؤها ولا نداؤها، وتحقق إذن أن المرجو للإنعام في الدنيا والآخرة هو الرب الذي يدعوهم هو إليه "[6].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٥١، ١٥٢ باختصار.

(٢) القتام: لون قاتم وأقتم: أغبر يعلوه سواد، وقد قتم يقتم قتوماً، وقتم يقتم قتماً وقتمةً. وبلد قاتم، وبلاد قواتم. وبازٍ أقتم الريش. وارتفع القتام، حتىٰ خفيت الأعلام؛ أي الغبار. [ينظر: أساس البلاغة للزمخشري: ٢/ ٥٣، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولىٰ ١٤١٩هـ ١٩٩٨م].

(٣) الذرق بالضم: ذرق الطير، كعذرة الناس. [ينظر: القاموس المحيط للفيروزآبادىٰ صـ ٤٣٨].

(٤) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٥٤.

(٥) سورة غافر الآية [٤٣].

(٦) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٥٤، ١٥٥ .

وكلمة "لا جرم" بفتحتين في الأفصح كلمة يراد منها معنىٰ لا يثبت أو لابد (١).

ومعنىٰ " ليس له دعوة " ينتفي أن يكون الدعاء إليه بالعبادة أو الالتجاء نافعًا، وليس المراد نفي وقوع الدعوة لأن وقوعها مشاهد (٢).

وجاءت جملة " وأن مردنا إلىٰ الله " معطوفة علىٰ ما قبلها " عطف اللازم علىٰ ملزومه، لأنه إذا تبين أن رب موسىٰ المسمىٰ (الله) هو الذي له الدعوة تبين أن المصير إليه في الدنيا بالالتجاء والاستنصار في الآخرة بالحكم والجزاء " (٣).

وفسرت كلمة المسرفين هنا " بالسفاكين للدماء بغير حلها، فيكون المؤمن قد ختم تعريضًا بما افتتح به تصريحًا في قوله: "أتقتلون رجلا"(٤).

ثم أنهىٰ الرجل المؤمن حديثه مع قومه عندما أحس منهم عدم قبولهم دعوته بقوله: { فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }(٥) وفي هذا القول ما يدل علىٰ متاركته لقومه " وتنهيته لخطابه إياهم، ولعله استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامه بعبارات الإنكار ما أيأسه من تأثرهم بكلامه، فتحداهم بأنهم إن أعرضوا عن الاستماع لنصحه سيندمون حين يرون العذاب إما في الدنيا كما اقتضاه تهديده لهم بقوله: { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ } أو في الآخرة كما اقتضاه قوله: { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ }"(٦).

ثم ختم الله (ﷻ) قصة هذا الرجل المؤمن بقوله: { فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } (٧).

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٢٤/ ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق: ٢٤/ ١٥٥ بتصرف.
(٣) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.
(٤) روح المعاني: ٢٤/ ٧١ .
(٥) سورة غافر الآية [٤٤] .
(٦) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٥٦ .
(٧) سورة غافر الآية [٤٥] .

وتعني هذه الآية أن الرجل المؤمن بإنكاره علىٰ قومه سلم مما أصابهم من العقوبة علىٰ كفرهم بالله ومكرهم في صدهم عن سبيله بما أظهروا للعامة من الخيالات التي ألبسوا بها عليهم (١).

فقد نجاه الله (ﷻ) " من سيئات ما مكره كفار آله صغراها وكبراها من الإهانة والتبرؤ منه فالسجن والتعذيب حتىٰ القتل إذ تتابعت عليهم أحداث خروج موسىٰ ببني إسرائيل من مصر، واستدعاء الجند من الأقاليم للحاق بهم وقتالهم، وخروج فرعون بجيشه ومعه كفار آله، ثم كانت النهاية خلف البحر ونجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وكل الذين خرجوا معه، وحمىٰ الله المؤمن الداعية من كل سيئات ما مكر كفار آل فرعون " (٢).

{ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } يعني أحاط بآل فرعون الغرق، والتعريف للعهد لأنه مشهور معلوم (٣).

وبهذا تكون خاتمة القصة القرآنية والتي أفاضت في حكاية دفاع الرجل المؤمن من أهل مصر من آل فرعون منهم ومن أهل الرأي والمشهورة فيهم، ومن أصحاب المنزلة الاجتماعية الرفيعة عن سيدنا موسىٰ (عليه السلام)، وتصديه لفرعون وحاشيته محاولاً صدهم عن قتل سيدنا موسىٰ (عليه السلام) حرصاً منه علىٰ ألا يتعرضوا لسخط الله (ﷻ) وعقابه، ثم توجه بدعوته إلىٰ قومه مبيناً لهم أن في اتباعهم فرعون سلوك غير مستقيم، وأنه لن ينفعهم يوم القيامة، وأنهم لابد أن يعرفوا أن استجابتهم لدعوته لهم كان لهم فيها النجاة إن عاجلاً أو آجلاً .

---

(١) ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير صـ٣٤١، والبداية والنهاية لابن كثير: ١/ ٢٦٤، ط: مكتبة المعارف – بيروت، ط: الرابعة ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر: ١٢/ ٣٨٤ .

(٣) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٥٧ بتصرف يسير .

التعريف بالرجل المؤمن:

من خلال ما سبق تبين أن القرآن الكريم عندما تحدث عن هذا الرجل المؤمن لم يصرح باسمه، فهو يوجه الخطاب للنبي (ﷺ) وللمؤمنين به ويعرض بمشركي قريش الذين كذبوا النبي (ﷺ) وذلك " حتىٰ لا ينصرف الذهن إلىٰ داعية تتحدث عنه الآيات والناس يتفرجون، وكأنما يقال لأصحاب النبي (ﷺ) هو رجل وأنتم رجال، مؤمن وأنتم مؤمنون، فلماذا لا تفعلون ما يفعل نصرة لنبيكم ما دمتم تملكون ما يملك من الرجولة والإيمان " (١) .

وهذا أمر لم يكن يناسب جميع المؤمنين في هذه المرحلة – قبل الهجرة –؛ لذا اكتفىٰ القرآن الكريم بالإشارة إلىٰ أوصاف عدة تحققت في هذا المؤمن جعلت الحق (جل وعلا) يثنىٰ عليه بهذه الصفات ويخلد موقفه في السجل الخالد وهو القرآن الكريم، فالآيات القرآنية السابقة التىٰ تحدثت عن هذا الرجل، وصفته بعدة صفات، ككونه رجلاً، وجمع مع الرجولية الإيمان، وهو من آل فرعون إلا إنه لم يكن يظهر إيمانه.

ونريد أن نتعرف علىٰ هذا الرجل من خلال تلك الصفات، وربما تعرفنا علىٰ اسمه – في خلال ذلك من أقوال العلماء والمفسرين .

أولاً: الرجولة:

من أول الصفات التي تطالعنا في هذا الشخص كونه رجلاً، فهل هناك فرق بين الذكورة والرجولة ؟ جاء في بصائر ذوي التمييز: " الرجل مختص بالذكر من الناس ويقال: الرجلة للمرأة إذا كانت متشبهة بالرجل في بعض أحوالها، وهو بين الرجولة والرجولية " (٢) .

(١) مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة: د/ محمود محمد عمارة صـ١٢، ط: مكتبة الإيمان، ط: الأولىٰ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي: ٣/ ٤١ .

وعلىٰ هذا فليس هناك فرق بينهما، وقيل: " لا يسمىٰ الإنسان رجلاً إلا إذا احتلم وشب "[1] .

ويعني هذا أن كلمة رجل تطلق علىٰ الكبير أما الصغير فيطلق عليه طفل ورضيع وغلام وصبي وغير ذلك .

فيكون قوله – تعالىٰ -: { وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ }[2] أنه أراد به الرجولية والجلادة[3] .

فالرجولة أجدر " بتحمل مسئولية المواقف الصعبة "[4] .

وإذا كانت الرجولة فيها " حيوية واندفاع لكنها الرجولة المحروسة بالصبر والأناة، كما أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك عندما استعمل لفظ الرجولة في مواطن تؤكد ذلك، وذلك قوله – تعالىٰ-: { وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَىٰ الْمَدِينَةِ }[5] و{ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ }[6] و{رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ}[7].

إنها رجولة الهداية والتعليم لا رجولة التحطيم والتجريم، وصحيح أنه فرد واحد وربما – لأنه محدود الإمكانات – ربما لا يستطيع أن يحرز في معركته نصراً حاسماً، ولكن نصوع الحق في موقفه وبقاء الدعوة حية في شخصه يسمع صوتها يعتبر نجاحاً يترك آثاره ولو علىٰ المدىٰ الطويل "[8] .

إنها تعني أنه كان رجلاً، وكان " علىٰ الحق غيوراً غيرة محكومة بهذه الرجولة المؤمنة: فمن بركات الرجولة الانضباط، فعقل الرجل يمضي أمامه يسعىٰ نوره بين

---

(١) المرجع السابق: نفس الجزء والصفحة .
(٢) سورة غافر، من الآية [٢٨]
(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٣/ ٤١ .
(٤) مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة: د/ محمود عمارة صـ١٣ .
(٥) سورة القصص، من الآية [٢٠] .
(٦) سورة النور، من الآية [٣٧] .
(٧) سورة الأحزاب، من الآية [٢٣] .
(٨) مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة: د/ محمود عمارة صـ١٦ .

يديه ومن ورائه بقية ملكاته فلا يضل بعون الله ولا يزل بعد ما ملك بالتفكير هُياج العواطف في اللحظات الحرجة " [1] .

وبهذا فالرجولة التي تستحق الثناء هي الرجولة القادرة على التحمل والصبر، المحكومة بهذه الصفة، والبعيدة عن الاندفاع والطيش والتهور .

ثانيًا: الإيمان:

الصفة الثانية من صفات هذا الرجل أنه مؤمن، وإخبار الله (ﷻ) عن مكنون قلب الرجل يؤكد تمكن الإيمان من قلبه، فربما لم يكن في إيمانه بموسىٰ (عليه السلام) محتاجًا لأدلة وبراهين كغيره، وإنما آمن عن اقتناع ويقين، والإيمان " ليس عاطفة – فحسب – تجعل القلب مع المؤمنين وتجعل الانتظام مع غير المؤمنين إنه بيعة وعهد يلتزمه الإنسان " [2] .

فإذا التزم الإنسان بهذا العهد وتلك البيعة لزمه " أن يكون مع المؤمنين في شتىٰ حالاته، وفي مختلف أحوالهم .. يؤذيه ما يؤذيهم، ويشينه ما يشينهم، ويفرحه ما يفرحهم، ويضره ما يضرهم " [3] .

وبهذا يكون الإيمان هو " المعيار في الدين بين الجاد فيه وصاحب المنفعة منه، والجاد في الدين – أو المؤمن به – هو الذي يتوقع تحمل تبعات ومسئوليات في الأموال والأرواح في سبيله ... وغير الجاد في الدين – أو غير المؤمن به ممن أعلن قبوله له – هو من يتوقع منافع مادية من قبوله إياه بدل أن يبذل من المال والنفس في طريقه " [4] .

---

(١) المرجع السابق صـ٣٦ .

(٢) الإسلام والإنسان: أ/ إبراهيم عوضين صـ٦٧، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، الكتاب السابع والعشرون ضمن لجنة التعريف بالإسلام ١٣٨٥هـ ١٨٦٥م .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك: د/ محمد البهي صـ٧٠ باختصار، ط: مكتبة وهبة، ط: الثانية ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

فالرجل آمن إيمانـاً جاداً متحملاً لما يلقيه عليه إيمانه من تبعات غير منتظر لمنافع ماديـة، ولا شـك أن مثـل هـذا الإيمـان لـه أثـره فهـو " ضـمان الثبـات وكاشـف الظلمات"[1].

كما أن مثل هذا الإيمان " يقوي النفس لتكون قادرة علىٰ تحمل الشدائد بل ومغالبتها، ثم يقوىٰ العقل ليستوعب السنن الكونية والاجتماعية " [2] .

وبهذا فقد اجتمع للرجل صفتان تؤهلاه لتحمل الشدائد هما الرجولة والإيمان.

أما عن إيمان غيره من المصريين فقد قيل: لم يـؤمن مـن أهـل مصـر غيـره إلا ثلاثـة هـم: آسية امـرأة فرعـون ومـريم بنـت لابـوس الملـك التـي دلـت علـىٰ عظـام يوسـف والماشطة [3] .

وروي عن ابن عباس[4] رضي الله عنه أنه لـم يـؤمن مـن القـبط [5] بموسـىٰ (عليه السلام) إلا هذا والذي جاء من أقصا المدينة يسعىٰ وامرأة فرعون [6] .

وهذا عدد قليل يدل علىٰ مكانـة هـذا الرجـل في الإيمـان بموسـىٰ (عليه السلام) وإن كنـت أرىٰ أن الذين آمنوا بموسىٰ (عليه السلام) من المصريين أكثـر مـن هـذا بكثيـر، فـإن السـحرة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم والذين آمنوا بموسىٰ وهـارون (عليهمـا السـلام)

---

(١) مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة: د/ عمارة صـ١٣، ١٤ .

(٢) السابق صـ٦٠ .

(٣) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر العين العيني: ١٥/ ٢٩١ ط: دار إحياء التراث العربي –بيروت .

(٤) عبد الله بن عباس أبو العباس، ابن عم رسول الله (ﷺ)، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث، وقيل: بخمس، والأول أثبت، دعا له النبىٰ (ﷺ) بالعلم والفقه، مات بالطائف سنة ٦٨هـ. [ينظر: الإصابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير: ٤/ ١٤١، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، ومحمود عبد الوهاب فايد، ط: دار الشعب] .

(٥) يخطئ الكثير فيظن أن القبطي يعني النصراني وهذا خطأ فالقبطي يعني المصري كجنس أساسي في مصر لكن عندما استعمرت الدولة الرومانية مصر كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا علىٰ القبطي لفظ (مسيحي). [ينظر: تفسير الشعراوي: ١٧/ ٨٧٢] .

(٦) ينظر: روح المعاني: ٢٤/ ٦٣ .

وكانوا مصريين كانوا كثيرين قال تعالىٰ: { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ }(١) وإن لم تعرف أسماؤهم .

ثالثًا: من آل فرعون:

وصف الله (ﷻ) الرجل المؤمن بأنه من آل فرعون، والآل كلمة " مقلوبة عن الأهل، ويصغر علىٰ أهيل إلا إنه خص بالإضافة إلىٰ أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة، يقال: آل فلان. ولا يقال: آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضوع كذا، ولا يقال: آل الخياط بل يضاف إلىٰ الأشرف الأفضل ... ويستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصـًا ذاتيـًا إما بقرابة قريبة أو بموالاة "(٢).

فهو إذن قريب لفرعون قرابة وثيقة مما جعل القرآن الكريم يضيفه إلىٰ آله، فقد قيل عن درجة قرابته لفرعون أنه كان " ابن عم فرعون وكان يجري مجرىٰ ولي العهد ومجرىٰ صاحب الشرطة "(٣).

فكونه ابن عم فرعون ويجري مجرىٰ صاحب الشرطة هذا غير بعيد أما كونه يجري مجرىٰ ولي العهد فلا يجوز إلا إذا كان فرعون لم يكن له ولد ولعله كان كذلك فقد قالت له امرأته عندما وجدوا موسىٰ (عليه السلام) في اليم { قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا }(٤) .

وقيل: إن هذا الرجل " كان واحداً من أعضاء مجلس المستشارين في القصر الفرعوني يومئذ "(٥) .

وهناك رأي آخر يقول: كان الرجل إسرائيليـًا ولكنه كان يكتم إيمانه من آل فرعون(٦) وأبعد منه من يقول إنه كان غريبـًا ليس من الفئتين(٧).

---

(١) سورة الشعراء الآيات [٤٦ – ٤٨].

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ١٥، ومفاتيح الغيب للرازي: ١٧/ ٥٠.

(٣) روح المعاني: ٢٤/ ٦٣.

(٤) سورة القصص من الآية [٩] .

(٥) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣/ ٤٢٣ .

(٦) ينظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٦، ١٢/ ٣٥٨ .

(٧) ينظر: روح المعانىٰ: ٢٤/ ٦٣.

وبهذا يكون وصفه " علىٰ هـذين القـولين بكونـه مـن آل فرعـون باعتبـار دخولـه في زمرتهم وإظهار أنه علىٰ دينهم تقية[1] وخوفـًا "[2] .

وقد رجح غير واحد من الأئمة الأعلام كونه من آل فرعون حقيقـة[3]، وأنـه ابـن عـم فرعون، واستبعد كونه إسرائيليـًا أو غريبـًا لمخالفته لسياق الكلام لفظـًا ومعنىٰ فهـو إذن قريب لفرعون ومن خاصته .

اسمه:

أما عن اسم الرجل المؤمن، فقد قيل في اسمه عدة أسماء زادت عن العشرة وصلت إلىٰ اثنا عشر اسمـًا منها: جبريل[4] وسمعان[5] وشمعان بالشين المعجمة، ويوشـع بـن نون وهو بعيد لأن يوشع من ذرية يوسف (عليه السلام) ولم يكن من آل فرعون، وحزقيل بن برحايا وعليه أكثر العلماء، وحابوت وهو الذي التقطه إذ كان في التابوت، وحبيب بن عم فرعون وحيزور[6]. وقيل: كـان اسـمه جـبر، وقيـل: جـابوت[7]. وقيـل: خربيـل بـن بوحابيل بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة، وقيل: حزبيل بحـاء مهملـة وزاي معجمة [8] .

(1) التقية: عَرَّفَهَا ابْنُ حَجَرٍ بِقَوْلِهِ: "التَّقِيَّةُ الْحَذَرُ مِنْ إِظْهَارِ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ مُعْتَقَدٍ وَغَيْرِهِ لِلْغَيْرِ". [فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١٢/ ٣١٤، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، الناشر: دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩هـ].
وَقَدْ عَرَّفَهَا السَّرَخْسِيُّ بِقَوْلِهِ: "التَّقِيَّةُ أَنْ يَقِيَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِمَا يُظْهِرُهُ وَإِنْ كَانَ يُضْمِرُ خِلاَفَهُ". [المبسوط للسرخسي: ٢٤/ ٤٥، ط: دار المعرفة، بيروت ١٤١٤هـ-١٩٩٣م] .

(2) روح المعاني: ٢٤/ ٦٣ .

(3) ينظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٦، قصص الأنبياء لابن كثير صـ٣٣٤، وروح المعاني للألوسي: ٢٤/ ٦٤، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٤/ ١٢٨ .

(4) ينظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٦ .

(5) ينظر: الكشاف: ٣/ ٤٢٤ .

(6) ينظر: عمدة القاري بشرح صحيح البخاري: ١٥/ ٢٩١ .

(7) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن المصري، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث: ١٩/ ٤٥٥، دار النوادر - دمشق، ط: الأولىٰ ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، وروح المعاني: ٢٤/ ٦٤

(8) ينظر: قصص الأنبياء: أ/ عبد الوهاب النجار صـ١٩٦.

وأجدني إزاء هذه الكثرة الهائلة من الأسماء لا أستطيع أن أرجح واحداً منها، فالقرآن الكريم لم يتعرض لذكر اسمه، ولو كان في ذكره فائدة لذكره، كما أنه لم يرد فيه شيء عن رسول الله (ﷺ) ولا حتىٰ عن أهل الكتاب .

يقول الأستاذ/ عبد الوهاب النجار: " لم تذكر التوراة ائتمار القوم بموسىٰ لقتله، ولا مسألة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسىٰ وتذكيره قومه بيوسف؛ لأن القوم نسوا حظًا مما ذكروا به، ولعل حقدهم علىٰ فرعون وقومه صرفهم عن ذكر أحد من المصريين قد آمن بموسىٰ " (١) .

فيكفيه أن موقفه سجل في الكتاب الخالد، ويكفيه أنه قد دلل بإيمانه علىٰ أن الإيمان " لا يحتجب عن أناس دون أناس لأنهم من عائلة معينة أو طبقة رفيعة، فالإيمان حينما يدخل في النفوس ويشع نوره في ظلمات القلوب فإنها تنشرح لما فيه وتعلن ولاءها أولاً وأخيراً له ولخدمته والتضحية في سبيله، فلقد كان بإمكان هذا الإنسان المؤمن أن يتمتع بدنياه مستفيداً من صلة قرابته لفرعون، وأن يكون واحداً من تلك الفئة التي عادت الحق وحاربته حفاظًا علىٰ المصالح والمناصب والجاه والمال لكنه فتح قلبه للحق مقدمًا ولاية الدين علىٰ ولاية القربىٰ والنسب والمصالح الشخصية "(٢) .

فاستحق بذلك الخلود، وكتبت له النجاة، ولو فعل غير ذلك لخسر دنياه وأخراه، طوي ذكره مع المكذبين والمعاندين .

رابعًا: يكتم إيمانه .

أخبر الله (ﷻ) عن مؤمن آل فرعون أنه كان يكتم إيمانه، وهذا يعني أن إخفاءه للإيمان كان " متجدداً مستمراً تقية من فرعون وقومه إذ علم أن إظهاره الإيمان يضره

(١) قصص الأنبياء: أ/ عبد الوهاب النجار صـ١٩٦.

(٢) الداعية الإيجابي في ضوء القرآن الكريم: د/ ريان محمود جابر قاسم صـ٤٠٨، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني يوليو ٢٠١٤م .

ولا ينفع غيره، يعني أن أحواله وظروفه لم تسمح له بإظهار دينه"[1].

وهو بهذا يوجه درساً في الكتمان " يتجه أساساً إلىٰ الدعاة في الأقليات الإسلامية بين الأمم الكافرة لقد كان من الحكمة أن يكتم الرجل إيمانه حتىٰ لا تذهب ريحه كنسمة عليلة ضاعت في إعصار فتىٰ .. لقد كانت مهمة المؤمن بالغة الدقة من حيث كان لابد من الكتمان عن آله الذين يساكنهم ويعايشهم، والعيون كلها مفتحة عليه، والصب[2] تفضحه عيونه ! ولكنه نجح في امتحان الكتمان ! فكان أسوة لكل مستضعف في بلاد كافرة فاجرة " [3] .

فالمؤمن لا يحسن به إظهار إيمانه في مثل هذه الحالة إلا إذا كان في هذا الإظهار " مصلحة للدعوة إلىٰ الله، أو كان فيه تشجيع للآخرين علىٰ الإيمان بالدعوة، وهكذا فعل السحرة فإنهم آمنوا لما تبين صدق دعوىٰ موسىٰ ولم يكتموا إيمانهم؛ لأن إظهار إيمانهم كان هو المطلوب وليس كتمانه لما في هذا الإظهار من إعلاء صوت الحق، ودعوة صامتة للناس للإيمان بما آمنوا به " [4] .

ولكن هل ظل هذا الرجل المؤمن مستمراً علىٰ كتمان إيمانه أم أعلنه؟

في الإجابة علىٰ هذا السؤال رأيان أحدهما: " أن فرعون لما قال: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ} [5] لم يصرح ذلك المؤمن بأنه علىٰ دين موسىٰ، بل أوهم أنه مع فرعون وعلىٰ دينه إلا إنه زعم أن المصلحة تقتضي ترك قتل موسىٰ؛ لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلىٰ الله والإتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل، والإقدام علىٰ قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات، بل الأولىٰ أن يؤخر قتله وأن يمنع من

---

(١)مقالات إسلامية في الفكر والدعوة للعلامة أبي الحسن الندوي، إعداد: سيد عبد الماجد الغورىٰ: ٢/ ١٠٦، ط: دار ابن كثير – دمشق، ط: الأولىٰ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

(٢) الصب: الميل إلىٰ الشئ. [انظر: لسان العرب: ١/ ٥١٥، مادة: صبب] .

(٣) مؤمن آل فرعون ودروس في الدعوة: د/ عمارة صـ١٨ .

(٤) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: د/ عبد الكريم زيدان: ١/ ٣٧٧، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الأولىٰ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

(٥) سورة غافر من الآية [٢٦] .